شخصية العدد

العلامة أحمد أحمد الحتة

رائد التاريخ الاقتصادى

بقلم

أ. د. السيد فليفل

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

بمعهد الدراسات الأفريقية

جامعة القاهرة

ولد الراحل العظيم فى ٢٢ أكتوبر ١٩٠٧، بمديرية البحيرة، حيث أتم دراسته الابتدائية ، ثم التحق بمدرسة طنطا الثانوية، وحصل منها على الشهادة الثانوية فى عام ١٩٢٦، ثم التحق بمدرسة المعلمين العليا (قسم التاريخ) بالقاهرة، وفى بداية الدراسة بالعام الرابع (١٩٢٩-١٩٣٠) التحق - فى نفس الوقت - بالسنة الدراسية الثالثة بكلية الآداب بالجامعة المصرية(جامعة القاهرة حاليا) .

وقد نال أستاذنا ليسانس الآداب قسم التاريخ، مدرسة المعلمين العليا (آداب) وزارة المعارف العمومية عام ١٩٣٠، كما نال ليسانس الآداب من قسم التاريخ بكلية الآداب بالجامعة المصرية سنة ١٩٣١ وتتلمذ من بعد ذلك على يد المؤرخ الكبير محمد شفيق غربال، فى دراساته العليا، حيث نال درجة الماجستير فى التاريخ الحديث فى موضوع " الفلاح المصرى فى عهد محمد على " فى عام ١٩٣٦ ثم واصل دراسة الدكتوراه تحت إشرافه أيضا، حيث حصل على درجتها فى عام ١٩٤٦، وكان موضوع رسالته كتابة الأغر "تطور الزراعة المصرية فى النصف الأول من القرن التاسع عشر" .

وقد فازت كلية التجارة بجامعة القاهرة بأن تكون أول جهة عمل بها مدرسا للتاريخ الاقتصادى والسياسى، فأستاذاً مساعداً لذات التخصص فى يناير ١٩٥١، ثم شغل أستاذ كرسى التاريخ الحديث والمعاصر بكلية الآداب جامعة الإسكندرية فى أكتوبر ١٩٦٠، واستمر فى التدريس بكليتى التجارة والاقتصاد والعلوم السياسية، حتى شاع لدى البعض أنه أستاذ اقتصاد سياسى معنى بالشأن التاريخى، وليس أستاذا للتاريخ الاقتصادى الحديث والمعاصر .

ولعب الحته دورا هاما فى الحياة العلمية العربية، حيث درس بفرع جامعة القاهرة بالخرطوم، وبجامعة بغداد (١٩٦٤-١٩٦٧) وبجامعة طرابلس-ليبيا(١٩٦٨-١٩٧٠)، وتخرج عليه الرعيل الأول من مؤرخى هذه البلاد العربية.

على جانب خدمة علم التاريخ، فإن أستاذنا رحمه الله كان صاحب يد بيضاء على دار الوثائق المصرية وعلى الجمعية التاريخية المصرية منذ نشأتها. إذ أنه

وكلا من رفاقه وأصدقائه من تلاميذ محمد شفيق غربال، عملوا تحت إشرافه لإعادة ترتيب الوثائق المصرية . ويعلم كثير ممن عملوا فى الوثائق المصرية أن الملفات فى ترتيبها القديم كان مكتوباً عليها "بترتيب الحته" أو "بترتيب"عزت" أى أستاذنا أحمد عزت عبدالكريم أو "بترتيب " الشناوى" أستاذنا عبد العزيز الشناوى. وفى هذا فإن إعادة الترتيب التخصصى التى تمت من بعد ذلك لم تحظ بقبول كبير لا عند الحته، ولا عند الشناوى . وقد علمت من الحته رحمه الله أنه وزميليه قاموا" بالترتيب" وليس التصنيف متطوعين، وحسبةً للعلم والوطن على مدار سنوات طويلة، التماسا لمعاونة الراحل العظيم محمد شفيق غربال فيما كلفوا به، وهذا كان شأنهم فى الجمعية التاريخية، حيث قاموا بمداومة تزويدها بالوثائق والمراجع من أسفارهم العديدة على سبيل الهدية. وكان جهد الحته فى إصدارات الجمعية مكرسا لعملية المراجعة الدقيقة للبحوث التى تنشر، حتى أننى أذكر أنه فى أول وآخر لقاء لى بالراحل الكريم الأستاذ الدكتور / حسن عثمان بعد تعيينى معيدا أن سألنى مع من تحب أن تعمل فقلت إننى قرأت تاريخ الزراعة المصرية للحتة، وأحب أن أسلك هذا النهج التوثيقى فى أيه دراسة أقوم بها، فرد رحمه الله قائلا: طبعا ومن يرشد طالبا إلى مثل هذا النهج أفضل من الأستاذ الدكتور / أحمد بيه.

وواصل الحته جهوده العلمية التى جذبت إليه باحثين من كافة الجامعات المصرية، كانوا يأتون حيث يشارك فى مناقشة رسالة، وكذلك كان مع المتقدمين للترقى من المدرسين والأساتذة المساعدين، فقدم لهم العون مخلصا والتوجيه سخيا، إذ أنه كان من القلائل الذين لم تلعب البترودولارز بأدمغتهم، ولم تتلوث ضمائرهم . ولقد جمع رحمه الله معجزةً وكرامةً بين جوانحه، فقد كان أرفق الناس بالتلاميذ، لكنه كان أشد الناس رفضا للعبث بمقدرات العلم وتسفيه البحث العلمى.

ولما عرض عليه العمل أستاذا متفرغا بمعهد البحوث والدراسات الأفريقية، آثر أن يعمل أستاذاً غير متفرغ، ورأى هذا ملائما للحالة التى آلت إليها الجامعة،

مفضلا عدم الانخراط فيما لا يلائم، واكتفى بالإشراف على عدد محدود من الرسائل العلمية، ولطلاب يختارهم بدقة. وكان يصل إلى مكتبه فى الرابعة من بعد ظهر السبت أسبوعياً، مالم يَعْرِضْ شىء طارئ، كان يجلس مناقشا وموجها للطلاب، ولا ينصرف مغادرا إلا إذا اكتفوا منه، وعلامة ذلك أن يحل الصمت فينهض كالطود الشامخ منصرفا ومودعا سائرا على قدميه إلى منزله.

ومن الجهود المخلصة التى لا يلم بها المؤرخون المصريون تلك الرسائل العديدة التى أشرف عليها بكلية التجارة جامعة القاهرة، فأغلب المعروف هو عن جهوده بكلية الآداب جامعة الإسكندرية، وبمعهد البحوث والدراسات الأفريقية، الذى استمر يعمل به إلى أن انتقل إلى الرفيق الأعلى فى عام ١٩٨٤ .

على صعيد مدرسته التاريخية، فإن الحته هو الرائد الأول لدراسات التاريخ الاقتصادى فى الوطن العربى كله. وقد وفر له هذا التخصص نظرة دقيقة لضرورة أخذ الأبعاد الاقتصادية بكامل الاعتبار حتى فى دراسة التاريخ السياسى أو التاريخ الاجتماعى أو الثقافى، باعتبار أن الفصل بين هذه الميادين هو فصل مدرسى بغرض الدراسة التفصيلية، وليس فصلا حقيقيا، فالإنسان لا يتحرك فى دائرة منها دون غيرها ، بل كل الدوائر تدور فى آن واحد معاً، وصانع القرار- الإنسان- إذ يفعل ينفعل بها جميعا فى آن، ومن ثم فالفصل التعسفى بينها غير ذى موضوع، وهو يعد خطأ منهجيا، وإن كان يخدم التخصص، لكن المنهج السليم يقتضى دراسة الواقع كما حدث بكل تفصيلاته، والربط بين هذه التفصيلات هو وحده الذى يحقق الرؤية التاريخية الصحيحة، والإدراك التاريخى السليم،قبل الإغراق فى التخصص.

وقد ساعد تدريس أستاذنا الجليل بكليتى التجارة والاقتصاد والعلوم السياسية على جعل رؤاه النظرية ذات عمقٍ تحليلىٍ جربه وعرفه تلاميذه ومحبوه، وتأثروا به واتبعوه.

على أن هنالك باباً مهما دلف إليه الحته على نحو غير مسبوق فى المكتبة

العربية، فعلى حين عرف المؤرخون اهتمامه بتاريخ الزراعة المصرية خاصة والتاريخ الاقتصادى المصرى بشكل عام، فإن الراحل الكريم اهتم بدراسة باب مهم من تاريخ علاقات مصر الاقتصادية الدولية، وبصفة خاصة مع الولايات المتحدة الأمريكية، حيث تابع دراسة تطور التمثيل القنصلى فالدبلوماسى، فالبعثات التعليمية ثم نمو التجارة والاستثمار المتبادل، وصعود الاهتمام الأمريكى بمصر، وذلك ما كان جانبًا هامًا وغير مطروق فى الدراسات التاريخية فى هذه الفترة.

وأما عن إسهامات الحتة البارزة، فإن من يلُقى نظرة على كتابات وبحوث الحتة يتبين له أهمية الدور الذى لعبه فى الحقل المعرفى التاريخى، وأنه مؤرخ راسخ القدم معروف بإسهاماته العلمية التى أثْرت المكتبة التاريخية، وعلى رأسها تاريخ مصر الاقتصادى فى القرن التاسع عشر وهو باب من الدراسة التاريخية المتخصصة التى يعد رائدها الأول بلا منازع . وله كثير من المؤلفات والدراسات العلمية التى تناولت أحوال مصر الاقتصادية وعلاقاتها بالعالم الخارجى فى القرن التاسع عشر.

وقد تأرجحت كتابات الحتة ما بين المؤلفات والبحوث ، أما عن المؤلفات فهى كالتالى:

- تاريخ مصر الاقتصادى فى القرن التاسع عشر، تاريخ الزراعة المصرية منذ تولية عباس إلى الاحتلال البريطانى، ويتحدث فيه الحته عن مشروعات الرى فى تلك الفترة وحيازة الأطيان الزراعية ومساحتها وأنواع الحيازة وأحكام تملك الأطيان وأنواعها بالإضافة إلى أنواع الضرائب وطرق جبايتها.

وقد نُشرت له أيضا العديد من البحوث فى المجلات العلمية وهى كالتالى:

- دراسات تاريخية اقتصادية لعصر محمد على ، مجلة كلية الآداب، المجلد الثالث، الجزء الثانى، القاهرة، ١٩٣٦ .

- جهود إبراهيم باشا فى خدمة الزراعة والصناعة والتجارة، الجمعية الملكية للدراسات التاريخية ، القاهرة، ١٩٤٨ .

- الأجانب فى مصر والسودان ١٨٤٩-١٨٦٢، مجلة الاقتصاد والتجارة، العدد الثانى، السنة السادسة، ١٩٥٨ .

- العلاقات الاقتصادية بين مصر والولايات المتحدة الأمريكية فى القرن التاسع عشر، مجلة كلية التجارة ، جامعة فؤاد الأول، العدد الأول، مارس ١٩٥٣ .

- العلاقات بين مصر والمكسيك ١٨٦٣-١٨٦٧، مجلة الاقتصاد والتجارة، العدد الثانى، السنة السادسة، ١٩٥٨ .

- التمثيل القنصلى والدبلوماسى للولايات المتحدة فى مصر فى القرن التاسع عشر، مجلة الاقتصاد والسياسة والتجارة، العدد الثانى، ١٩٥٧ .

- البعثات المصرية إلى الولايات المتحدة فى القرن التاسع عشر، المجلة المصرية للقانون الدولى، ١٩٥٧ .

وفيما يخص منهج الحته فى تناول تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر الذى تعلمناه فى معهد البحوث والدراسات الأفريقية، فقد نقلنا من مدرسة دراسة تاريخ الاستعمار الأوروبى فى أفريقيا إلى دراسة تاريخ المستعمرة الأفريقية، حيث صحح مفاهيم التناول التاريخى، ومنه عرفنا أن تاريخ أفريقيا الصحيح ليس تاريخ الأجانب على أرض أفريقيا، أو بمعنى آخر دراسة الفعل الأوروبى European Action، ولا هو دراسة رد الفعل الأفريقى African Reaction بل هو تاريخ التفاعل بينهما بكل وقائعه Historical Interaction، والبون شاسع بين كل ذلك .

وإذا كان من التعذر حصر مساهمات الراحل الكريم فى البلاد العربية، حيث تناثرت إسهامات شتى فى التاريخ العراقى والليبى والسودانى فى مجلات وصحف متنوعة فإن مسيرته موضع إعزاز وتقدير ممن تتلمذوا عليه، أو ناقشهم

فى رسائلهم أو شارك فى ترقيتهم لدرجتى الأستاذ المساعد والأستاذ.

على جانب آخر فالرجل كان شديد الاعتداد بالنفس، شديد التواضع لين الجانب، غير أنه كان لا يقبل أنصاف الحلول، ولا أنصاف الباحثين، ولا كان مستعداً للمجاملة على حساب الحق أو العلم. وكان لدى الحته سمت الأستاذ إذ جمع بين البساطة الكاملة والأناقة التامة، يتصرف بحكمة بينة وبعقل راجح رزين، وبكامل الاحترام والشموخ، وهى خصال سعى إليها كل محبيه وتلاميذه. وقد وافى الحتة تكريم الدولة حين منحه الرئيس الراحل جمال عبد الناصر وسام الاستحقاق من الطبقة الأولى فى عام ١٩٦٨، كما كرم معهد البحوث والدراسات الأفريقية سيرته ومسيرته وعطر ذكراه بمنح اسمه الكريم شهادة تقدير والدرع التذكارى بمناسبة احتفال المعهد بيوبيله الذهبى فى عام ١٩٩٧، اعترافا بفضله وإسهاماته فى تكوين المدرسة التاريخية الأفريقية، رحمه الله رحمة واسعة وجمعنا به فى مستقر رحمته.